حوار
مع آني كنفاني

سرتْ في صوتي رعشةٌ خفيفة حين ردّت آني كنفاني على الهاتف. امرأةٌ دانمركيّة، قدمت إلى بيروت، وتزوّجت فلسطينياً، واستمرّت بعد موته في خدمة الأطفال الفلسطينيّين واللبنانيّين في مخيّمات اللاجئين في بيروت وصيدا. أوَتكون أسطورةً، هذه المرأةُ الدانمركيّة التي أحسب أنها شقراء؟ أيعقل أن تترك امرأةٌ غربَها الجميل الأشقر الفرح وتلجأ إلى شرقنا الذي يهرب منه أكثرُ أبناء جيلي متى توفرت لهم أسبابُ الهرب؟ أيعقل أن تعيش عشرين عاماً في هذه الأرض الفقيرة بعد أن رحل عنها أعزُّ من تملك: زوجُها وأستاذها وحَبيبها غسّان كنفاني؟

حين صعدتُ إلى البناية التي تقطن فيها آني، تدفّقت في رأسي شخصيّاتُ غسّان كنفاني الروائيّة، وتلاحقت أحداث رواياته وارتطم واحدها بالآخر. لكنّ صورة «سعيد س.» - بطل رواية عائد إلى حيفا - طغت على كلٍ ما عداها. حتى إذا ما فتحت لي البابَ آني، الشقراء، الزرقاء العينين، كان أوّل ما فتّشت عنه ريشات الطاووس الخمس التي تركها «سعيد س.» في منزله في حيفا حين طُرد منه عام ١٩٤٨ وعادَ إليه بعد عشرين سنة ليجده محتّلاً من قِبلِ عائلة يهوديّة، وليجد ريشاته الأثيرة ناقصة. وكان ثاني ما فتّشتُ عنه صورة الشهيد «بدر اللبدة» - أخي «فارس اللبدة» - وهي صورةٌ احتفظَ بها مواطنٌ عربيٌّ آخر استأجر بيت «فارس» عقب احتلال البلدة.

لم أجد الريشات، ولم أجد صورة بدر اللبدة. لكنّ غسّان كنفاني كان في جميع جنبات منزل آني كنفاني. ففي مواجهتي مكتبةٌ صفّت عليها آني كتبه وكتبها، وفي وسط المكتبة صورةٌ له، وأُخرى له ولها حين كانا لا يزالان يعيشان أطوار حبّهما الأولى. وقرب هذه الصورة تربّعت صورة أُخرى لـ«أمّ سعد»، صديقة غسّان وآني، ورمز «الطبقة الفلسطينيّة التي دفعت غالياً ثمن الهزيمة [عام ٦٧]... والتي تظلّ تدفع أكثر من الجميع».(١) وعلى يساري، رأيت صورة لغسّان و«لميس» - ابنة أخته التي استُشهدت معه في انفجار سيّارته تلك الصبيحة المشؤومة منْ تمّوز عام ١٩٧٢؛ «لميس» الجميلة التي كان غسّان يهديها كُلّ عام كتاباً يجترحه من أعصابه وآماله الجميلة. ونظرتُ فوقي، فطالعني حصان غسّان كنفاني - برسمه - سائراً في ثباته المعهود وسط الهجيرة البرتقاليّة.

آني، يا آني. لَكَمْ أنهكتك سنون البعد عن الحبيب، ولكم أثقلتكِ المجازر التي حلّت بشعبك الفلسطيني - أنت الدانمركيّة التي أثبتِّ، بصمودك في بيروت عشرين عاماً بعد رحيل غسّان، وبإشرافك على مؤسّسات تعليم اللاجئين الفلسطينيّين ورعايتهم، قولَ «سعيد س.» ومن ورائه غسّان كنفاني نفسه، إن «الإنسان قضيّة»، وإنّ فلسطين:

> ... أكثر من ذاكرة، أكثر من ريشة طاووس، أكثر من ولد، [هل نضيف: أكثر من زوج؟]، أكثر من خرابيش قلم رصاص على جدار السلّم... لقد أخطأنا حين اعتبرنا أنّ الوطن هو الماضي فقط. أمّا خالد [ابن سعيد س.] فالوطن عنده هو المستقبل. وهكذا كان الافتراق، وهكذا أراد خالد أن يحمل السلاح...(٢)

وأثبتِّ، بصمودك ونضالك، قولاً آخر لغسّان:

> إنّنا حين نقف مع الإنسان، فذلك شيء لا علاقة له بالدمّ واللّحم وتذاكر الهويّة وجوازات السفر!(٣)

☐ لا يعرف العرب الكثير عن آني كنفاني. لقد تحدّثتِ في كتابك عن التحاق أبيك بحركة المقاومة الدانمركيّة في مواجهة النازيّة التي احتلّت الدانمرك. هل بإمكانك أن تحدّثينا عن خلفيّتك العائليّة، عن توجّهاتك السياسيّة، وعن نشاطاتك الطلاّبيّة؟

- كان جدّي من أوائل الثوريّين، ومن أوائل الديموقراطيّين الاشتراكيّين في الدانمرك. وكان أبي نجّاراً، التحق في بداية حياته بالحزب الشيوعي الدانمركي، وعمل طويلاً في خدمة الفقراء وفي سبيل تطوير أوضاع العمّال في المجتمع والحزب ونقابات العمّال. وقاتل، مع رفاقه، ضدّ الاحتلال النازي الذي احتلّ الدانمرك.

(١) غسان كنفاني، أم سعد، المقدّمة.

(٢) عائد إلى حيفا، الآثار الكاملة، المجلّد الأوّل، ص ٤١٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٠٤.

أمّا عن وضعي الشخصي، فأنا لم أكن منخرطة انخراطاً مباشراً في العمل السياسي. لقد شاركتُ مثلاً في التظاهرات المطالبة بالحدّ من استشراء الأسلحة النوويّة، والمطالبة بالسلم، وغير ذلك من النشاطات التي تكثّفت إبّان مرحلة «الحرب الباردة» منذ منتصف الخمسينات. وقد كنتُ تلميذة، ثمّ صرت معلّمة. وكنت نشطة في حقل العمل الاجتماعي الثقافي، كالفولكلور والموسيقى الشعبيّة، وسافرت بصحبة فريق متخصّص في هذا الحقل إلى عدّة بلدان في أوروبا. وذهبتُ في إحدى رحلاتي تلك إلى يوغوسلافيا حيث واجهت للمرّة الأولى قضيّة الشعب الفلسطيني.

وُلدتُ أثناء الحرب، ولا أزال أذكر بعض أحداثها. كان على عائلتي أن تغطّي النوافذ أثناء الليل كي لا تنكشف البيوت زمن الاحتلال النازي. وتدفّق المهاجرون الألمان وغير الألمان إلى الدانمرك. وكانتْ ثمّة امرأة مهاجرة تعيشُ ـ سرّاً ـ معنا؛ لم نخبر أحداً بأمرها. وكنّا نعيش في بيت صغير. وذات يوم اختفت هذه المرأة، وظننتُ أنّها قد ارتحلت إلى السويد ـ شأنها شأن عدد من المهاجرين واللاجئين السياسيّين الآخرين إبّان الغزو النازي. وكان ثمّة إشارةٌ سريّة/إنذارٌ لأبي، عبارة عن زهرة معيّنة نضعها عند شبّاك بيتنا؛ وكانت مثل هذه الإشارة تعني أنّ عليه ألّا يدخل البيت بل أن يواصل طريقه على درّاجته، لأنّ ذلك يعني أنّ الألمان يراقبونه.

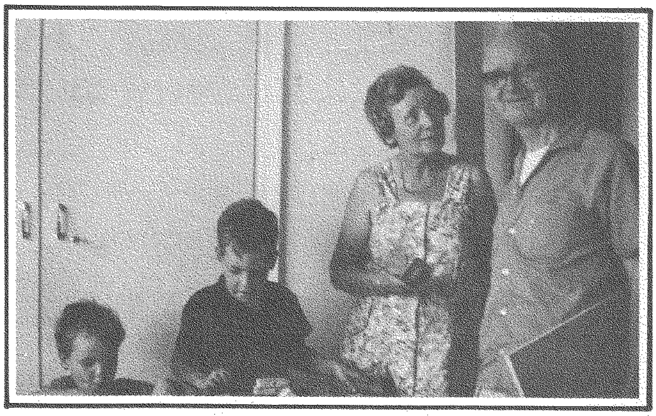

أبو آني، أم آني، فايز وليلى (ابنا غسّان)

كان والدي من الناس الأصيلين الكرماء. خلال الثورة الأهليّة الاسبانيّة التي اندلعت بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٩ ـ وهي الفترة التي صادفت كذلك اندلاع الإضراب الشهير في فلسطين ـ كانت أمّي ـ وكثيرات غيرها من النسوة الدانمركيّات ـ تجمع الثياب أو تصلحها وترسلها إلى القوى التقدميّة في إسبانيا.

□ لا شكّ أنّ أفراد عائلتك ـ وأباك الشيوعيّ بشكل خاص ـ قد تعاطفوا مع اليهود الذين اضطهدهم الألمان النازيّون، على نحو ما اضطهد هؤلاء الشيوعيّين والتقدميّين الآخرين كذلك.

ـ بالضبط!

□ هل أحسستِ في يوغوسلافيا، حين واجهتِ مأساة الشعب الفلسطيني للمرّة الأولى في حياتك، بالصدمة؛ صدمة أن يكون جلّادو هذا الشعب هم أنفسهم أولئك الذين جَلَدَهم النازيّون، وهم أنفسهم أولئك الذين تعاطفتِ أنتِ وتعاطف أبوك وأمّك معهم سنين طويلة؟

ـ حين أُعلن عن إنشاء دولة «اسرائيل» عام ١٩٤٨، كان أكثر الناس في بلدي فرحين. فقد أتيح أخيراً لليهود المضطّهَدين مكانٌ آمن. ولم يعرف أكثر الناس آنذاك ـ أو أنهم لم يفكّروا ـ بأنّ ثمّة شعباً آخر يحيا هناك، في فلسطين. وحين قال لي طالبان في «دوبرڤنيك» في يوغوسلافيا ـ أثناء حضوري مؤتمراً للطلّاب ـ إنّهما فلسطينيّان، قلت: «أوه! جيّد! إنّني أعرف شيئاً عن الرقص الشعبي الاسرائيلي!.» عندها، نظرا إليّ وطلبا منّي الجلوس والتحدّث إليهما، وأخبراني عن المأساة الفلسطينيّة. فتملّكني الغضبُ الشديد، لأنّه كان قد مضى حوالي الثلاثين عاماً على نشأة تلك المأساة من غير أن أعرف عنها شيئاً! وتساءلتُ: إذا كان هذا شأني أنا القادمة من عائلة تقدميّة ـ فماذا يكون شأن الآخرين؟

□ هل طَرح مثل هذا التساؤل في ذهنك آنذاك تساؤلاً آخر عن طبيعة القوى اليساريّة التقدميّة في وطنك وفي أوروبّا بشكلٍ عام ـ تلك القوى التي تحدّثت على الدوام عن التضامن الأمميّ ودعم الشعوب المقهورة؟..

ـ نعم. لكنْ لا تنسَ أنّنا نتحدّث عن مرحلة الستّينات. كان الشيوعيُّون واليهود آنذاك مضطّهَدين سواءً بسواء. وكان الكثير من الشيوعيّين يهوداً. غير أن الدانمراكيّين لم يكونوا يعلمون شيئاً عن الفلسطينيّين. فقد كان الاسرائيليُّون مهيمنين على الصحافة آنذاك؛ بل إنّهم لا يزالون كذلك حتّى اليوم، وها هو رئيس تحرير واحدة من كبريات الجرائد الدانمركيّة مواطن اسرائيلي إلى جانب كونه مواطناً دانمركيّاً! وحين عدتُ من يوغوسلافيا وأخبرت والدي بما سمعته من الفلسطينيّيْن، دُهش واعترف بأنّه لم يكن يعلم شيئاً من ذلك القبيل. وحين طرحتُ هذا الموضوع أمام الطلّاب والأساتذة، لم يعلم إلّا أستاذ مُهاجر واحد بما كنت أقوله، رغم أن بعض الطلّاب أبدوا اهتماماً بالموضوع. وتساءلت مرّةً أخرى: «كيف استطاع العالَمُ أن يتدبّر أمرَ دفن القضيّة الفلسطينيّة ثلاثين سنة بأكملها؟!». إنّ الشعب الدانمركي لم يتجاهل القضيّة، وإنّما عتّم عليه الإعلامُ تعتيماً تامّاً.

□ ما كان انطباعك الأوّل عن الفلسطينيّين اللّذيْن قابلتِهما؟

ـ كانا منطقيّيْن. لم يخبراني عن مشروعهما السياسي ـ فقد كان لقائي بهما في أوّل الستّينات، أي قبل أن يختمر مشروع دولة علمانيّة

ديموقراطيّة في فلسطين ـ لكنّهما شرحا لي ما حدث لوطنهما. ثمّ ذهبتُ إلى سوريا ولبنان عام ١٩٦١ وتعرّفت بطريقة أفضل إلى المشكلة الفلسطينيّة. وكتبتُ مقالة، بعد زواجي بغسّان بعامين، نشرتها في الدانمرك، وصارَ أهلي أكثر تفهُّماً للقضية الفلسطينيّة؛ وحين ذهب غسّان إلى الدانمرك عام ١٩٦٤ تحسّن الوضع تحسُّناً ملحوظاً، وكتب أبي عدّة مقالات وصار أخي جزءاً من الحركة المؤيِّدة للفلسطينيّين. وتطوّر الوضع بعد هزيمة ١٩٦٧، ويمكن القول إنّ جزءاً يسيراً كان يكتب في الصحافة الدانمركيّة عن فلسطين قبل ذلك الزمن.

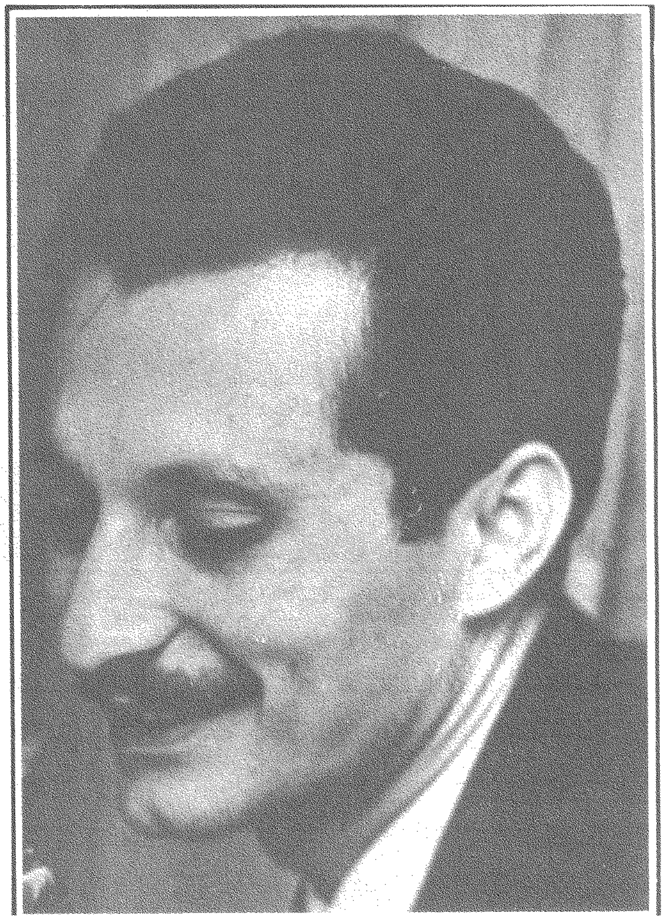

في الدانمرك (١٩٦٤)

□ لا شك أنّ الدانمركيّين والعرب هنا قد طرحوا عليك ـ أو كان بودّهم أن يطرحوا عليك ـ سؤالاً شبيهاً بالتالي: لماذا تتخلّى طالبة وأستاذة دانمركيّة عن وطنها الأصلي وتعتنق وطناً آخر لا يوجد إلّا في الماضي وفي الأحلام والأماني؟

ـ قد يكون لخلفيّتي العائليّة والطبقيّة (فقد كان أبي، على ما أسلفتُ، ثوريّاً وابن طبقة عاملة) دخلٌ في توجّهاتي السياسيّة الجديدة. بالطبع ثمّة قضايا في الدانمرك أهلٌ لأن يناضل المرء من أجل تحقيقها. ولكنّ القدر، ربّما، قد دفعني إلى المجيء إلى هنا.

ولا شكّ أنّ المشكلة الفلسطينيّة مختلفة نوعاً ما عن غيرها من المشكلات العالميّة. فليس ثمّة شعبٌ طرد بأكمله من أرضه وهُجّر إلى بلاد أخرى. لكن أبي ناضل ضدّ النازيّين، والاسبان ناضلوا ضدّ فرانكو، وثمّة نضال من أجل إحقاق حقوق الأطفال في أن يكون لهم مأوى وكساء وتعليم وغذاء في العالم أجمع.

□ أنتقلُ إلى غسّان كنفاني. التقيتِه في أيلول عام ١٩٦١ في بيروت وكان آنذاك محرّراً في **الحرّية** الناطقة بلسان حركة القوميّين العرب. هل تذكرين لنا بعض تفاصيل لقائكما الأوّل؟

[شعّت عينا آني لحظة، ثمّ خمدتا، وعادتا إلى الإشعاع، قبل أن تضيف:]

جئتُ من يوغوسلافيا إلى دمشق، وفي نيّتي أن أذهب بعد ذلك إلى بيروت ومصر. وكان لغسّان أصدقاء أعطوني رسالة لكي أحملها له إلى بيروت، فيعينني كذلك على الدخول إلى المخيّمات الفلسطينيّة. وحين أخبرت غسّان بُرادي غضب، وقال إنّني لا أوافق على أن تشاهدي مخيّمات اللاجئين قبل أن تعرفي أكثر عن المسألة كلّها...

□ ماذا شعرتِ إذّاك؟

ـ كنتُ قبل جواب غسّان متحمّسة لرؤية المخيّمات. لكنّي لم أحسّ بالإهانة بعد جوابه.

□ وبعد ذلك؟

ـ تزوّجنا في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٦١. وُولد «فايز» في العام التالي.. وصار غسّان رئيس تحرير **المحرّر**، وكان عمر فايز آنذاك عاماً ونصف العام. كان غسّان يعمل كثيراً، بل إنّه كان يتابع عمليّات طبع الجريدة نفسها! وتحوّلت **المحرّر** إلى ثاني أكبر جريدة لبنانيّة حين كان غسّان يرأس تحريرها.

وكتب غسّان في **الحوادث** أيضاً، وفي **الأنوار** تحت اسم مستعار هو «فارس فارس».

□ هل قال لك لماذا كان يستخدم اسماً مستعاراً؟

ـ الحقيقة أنّ مجمل ما كتبه بهذا الاسم عبارة عن مراجعات كتب، ونقد اجتماعي. ربّما كان ذلك طريقةً للكتابة بأسلوب آخر غير ذاك الذي استخدمَه في رواياته وقصصه ومقالاته السياسيّة. ولم يكن تغيير اسمه لأيّ دواعٍ سياسيّة.

□ وكيف عشتما بعد ذلك؟

ـ سكنّا في شقّة في شارع الحمراء ببيروت. وفي بداية عام ١٩٦٢

حصلتْ محاولةُ انقلاب في لبنان. ولم تكن لديه أوراق رسميّة، فلازم البيت وكتب **رجال في الشمس**.

□ ولكنْ قبل أن نتحدَّث عن **رجال في الشمس**، هل باستطاعتك أن تذكري لنا كيف عرضَ عليك الزواج؟

ـ بالطبع!

□ نستطيع أن نُلغي هذا السؤال إنْ شئتِ!

ـ لا! لا أمانع! لقد دعاني إلى العشاء بعد أسبوعين على لقائنا، وكان ذلك في مقهى الغلاييني. وجلس. وقال: قبل أن نغادر هذا المقهى، عليك أن تجيبي على سؤالي: «هل تتزوَّجينني»؟. ثمَّ أردف قائلاً: «لكنّي فقير، لا مال لي، لا هويّة، أعمل في السياسة، لا أمانَ لي، وأنا مصابٌ بالسكّري.»

ـ هل كنت تضحكين؟

ـ[**ضحكت آني، وأشعّت من جديد، وقالت**]: كنت أستمع إلى كلّ تلك «النقاط السود». ثمّ قلت له: «عليّ أن أفكّر بعرضك». وكنّا نصعد الدرج المفضي إلى فناء المقهى، لكنّي قبل أن أصل إلى الدرجة العليا قلت: «نعم، سأتزوجّك!»

وأذكر أنّنا ذهبنا إلى مقهى «الدولتشي ڤيتّا»، وشاهدنا بعض الأصدقاء القدامى، وأخبرناهم بقرارنا. وتحمّس وضّاح فارس، ولا سيّما حين علم بأنّنا سوف نقيم احتفالاً بالمناسبة! [ضحك].

□ هل حاول أصدقاء غسّان الفلسطينيّون ثنيه عن الزواج بأجنبيّة؟

ـ منذ الأيّام الأولى لوصولي إلى بيروت، التقيت بأصدقاء غسّان من «النادي الثقافي العربي». ولم يثنِه أحد على الإطلاق. هذا حسب علمي على الأقلّ.

□ وهل التقيتِ به بشكل مكثّف على امتداد الأسبوعيْن اللّذيْن سبقا زواجكما؟

ـ نعم. كنّا نلتقي يوميّاً. وذات يوم قالت لي زوجة أخي إنّ أكثر صديقاتي قد تزوّجن. وكنتُ يومها في الخامسة والعشرين من عمري.

□ وهل ثناك أحد من عائلتك عن الزواج بأجنبي؟

ـ لم يتح لأحد الوقت لمثل هذا الثني! غير أنّ أمّي كانت شديدة الحزن في البداية. وبعثتُ لأهلي بدعواتٍ لحضور عرسي. لكنّ صدمتهم كانت أعظمَ من أن يتماسكوا! غير أن أخويَّ الأكبريْن قالا لوالديّ: «لا تقلقا! آني فتاة ناضجة وتعرف ما تصنع».

لكنّي علمت فيما بعد أنّ زواجي كان صدمة لأمّي. كانت فكرة جيلهم عن «العربي» تتلخّص في أنّه يتزوّج من أربع نساء، إلى ما هنالك من خرافات.

[وهنا ألحتّ آني على العودة بذاكرتها إلى ما قبل زواجها بغسان]

أذكر الآن أنّه عند قدومي إلى دمشق ـ قبل الزواج ـ من يوغوسلافيا، رحتُ أفتّش عن مركز «الاتحاد العام لطلبة فلسطين». وما إن نزلتُ من السيّارة حتّى نظرتُ حولي، فلم أعثر على شيء حيّ. وفجأة وجدتُ سيّارة ذاتَ لوحة دانمركيّة! فعزمت على المكوث قرب السيّارة لحين وصول صاحبها.

وإذا بصاحبها طبيب دانمركي يعمل في «الفاو». فأخبرته بحالي، فعرض عليّ نقلي في سيّارته إلى حيث ينزل في أحد الفنادق، على أن نتناول طعام الغداء معاً، ثمّ يُريني بعضَ شوارع دمشق. كان إنساناً طيّباً. ثمّ قال لي: «غداً، عليك أن تذهبي إلى سفارة الدانمرك، ومن ثمّة عليكِ أن تعودي أدراجك إلى الدانمرك!!» لكنّي أقمتُ بضعة أيّام في منزل في دمشق للطلّاب العرب، قبل أن أذهب إلى بيروت وأتزوّج غسّان. وبعد مدّة، كتبت إلى ذلك الدانمركي، وقلت له إنّي لم أعد إلى الدانمرك وإنّي سوف أتزوّج هَهنا في بيروت!

لقد عاملني أصدقاء غسّان وعائلته (عمّته، أخته...) بحميميّة. وكنّا نعيش، أنا وغسّان، في بناية حيث صيدلية المدينة في الحمراء.

□ ما كان موقف غسّان من المراسلين الأجانب والمراسلات الأجنبيّات؟

ـ كان غسّان يقابل العشرات من هؤلاء، ولا سيّما حين أصبح الناطق الرسمي باسم الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين. وكان يتوقّع أن يكون بعضهم ساذجاً، أو راغباً في التعاطف الزائف مع الشعب الفلسطيني، أو جاسوساً. لكن غسّان امتلك قدرة فائقة على الإقناع، وتحوّل مكتب **الهدف** إلى «خليّة نحل» للمراسلين. ولم يكن له أعداء حتّى بين أولئك المراسلين الذين كانوا يعادون القضيّة الفلسطينيّة. وإنّي لا أشكّ لحظة في أنّ سبباً أساسيّاً من أسباب اغتيال الصهاينة لغسّان هو قدرته على إقناع المراسلين والعالم أجمع بعدالة القضية الفلسطينيّة.

□ لنعد إلى **رجال في الشمس**. كتبها غسّان خلال شهرين من الاختفاء عن أعين السلطة اللبنانيّة.

ـ بل إنّي أذكر أنّ الشرطة جاءت لتفتّش البناية. فزعم ناطور البناية أنّ ساكن شقّتنا امرأة أجنبيّة. وقد كان ذلك السبب الأوحد في عدم تفتيش شقّتنا وربّما السبب الأوحد في عدم إلقاء القبض على غسّان.

□ إذنْ، لقد أنقذتِهِ!

ـ الحقيقة أنّ الناطور هو الذي أنقذه.

غسّان يكتب رجال في الشمس في منزله في الحمراء (١٩٦١)، متخفّياً عن رجال السلطة

□ ماذا بعد عن ظروف كتابة الرواية؟

ـ كان غسّان يدخّن كثيراً. وفجأة قرّر أثناء كتابة **رجال في الشمس** أن يتوقّف عن التدخين، ورمى بعلبة الدخان، وقال: «خلص»! ثمّ قرأ الرواية لي مترجمة، وأهداها لي.

□ هل كنتِ تعترضين على بعض ما يكتب؟

ـ كنت أحبّ جميع ما كتبه. وأعشق **رجال في الشمس**، و**أرض البرتقال الحزين**، و**عالم ليس لنا**. وأعتقد أنّ كتابته تأخذ بالأنفاس، وقد كتبتْ لي صديقةٌ دانمركيّة تقول إنّها لم تفهم القضية الفلسطينيّة ولم تقدرّها قبل أن تقرأ **رجال في الشمس**.

□ ما كانت علاقة غسّان بخالد الحاج؟

ـ خالد الحاج كان من أوائل الشهداء الفلسطينيّين. خالد، وأحد إخوة «أبو ماهر اليماني»، كانا من أوائل الشهداء على طريق تحرير فلسطين. وكان خالد من أصدقاء غسّان المقرّبين، ولهذا أهداه **ما تبقّى لكم**.

□ كيف كان وقع هزيمة ٦٧ على غسّان؟

ـ أيقظتُه صباح الخامس من حزيران وأخبرته بأنّ الحرب قد بدأت. كان شديد الحماس أوّل الأمر. ووصف حماس العرب آنذاك في **أمّ سعد**، فذكر أنّ أمّ سعد قد قذفت بالراديو بعيداً لكثرة ما أوْرَدَ من أكاذيب عن انتصارات العرب. وحين علم غسّان بالهزيمة، أُصيب بالخيبة الشديدة ولا سيّما بعد أن تحدّثت الإذاعات عن الانتصارات المزعومة.

لكنّي ما زلت أعتقد أنّ غسّان احتفظ بإعجابه بجمال عبد الناصر رغم الهزيمة.

□ كيف كان وضع غسّان الصحّي آنذاك؟

ـ كان غسّان يعاني، بالإضافة إلى داء السكّري، من داء

المفاصل؛ وهو داءٌ يلمّ بالإنسان عادة من التخمة وكثرة الجلوس، ويسمّى هذا الداء بـ«داء الملوك». وذات يوم ذهب غسّان إلى الطبيب وقال له: «شوفْ يا حكيم. الله حطّني في الملفّ الغلط. أعطاني السكّري ـ وهذا مرض يأتي في كثير من الأحيان لمن يأكل كثيراً ـ وأعطاني داء المفاصل مع أنّي فقير معدم وكثير الحركة!». والمعلوم أنّ غسّان كان يكتب كلّ يوم، وقد ألّف حوالي ١٩ كتاباً خلال سنوات قليلة، وكان صحافيّاً مداوماً.

□ غادر غسّان جريدة **الأنوار** عام ١٩٦٩، وأسّس مجلّة **الهدف**. هل تذكرين شيئاً عن ملابسات مرحلة الانتقال تلك؟

ـ حين أراد غسّان الاستقالة من **الأنوار** ومن ملحقها، قال له سعيد فريحة: «لا أريدك أن تذهب!». بل إنّ فريحة عرض عليه زيادةً في مرتّبه. لكنّ غسّان رفض رغم كون مرتّبه الجديد في **الهدف** هزيلاً. فقد كان لغسّان على الدوام «هدف» حتّى قبل تأسيس **الهدف**. ومع **الهدف** كان مقتنعاً بأنّه سوف يصل إلى الجماهير وإلى المخيّمات الفلسطينيّة بشكل مباشر.

□ حادثة ذكرها لك أثناء عمله في **الهدف**؟

ـ ثمّة مراسلٌ من مراسلي **الهدف** كتب ذات يوم مقالة تهاجم عاهل المملكة العربيّة السعوديّة. ولم يكن غسّان في بيروت آنذاك، لكنّه أعلن أنّه يتحمّل مسؤوليّة كلّ ما يُكتب في المجلّة. فأُخذ إلى بعبدا، لكنّه لازم مستشفى السجن طَوال الوقت.

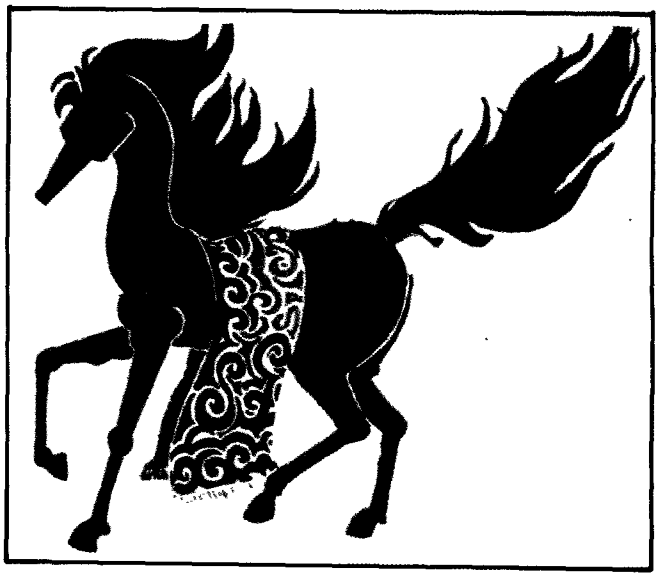

«حصان» بريشة غسّان (١٩٧١)

وكان في تلك المرحلة شغوفاً برسم الجياد وتلوينها، فيعرضها أمام ممرّضيه ويهديهم إيّاها. وكانت ثمّة ممرّضة شديدة العناية والإعجاب بغسّان، وتأتيه بكلّ ما يرغب، بل إنها ظلّت تأتي مع أولادها إلى بيتنا بعد استشهاده أيّام رمضان وأعياد الميلاد، وتجلب لولدينا الهدايا. كانتْ تعرفُ أدبَ غسّان قبل أن يُسجن، بالطبع. لكنّ بقيّة الأطباء، بمن فيهم أولئك الذين لم يعرفوه قبلاً، أُعجبوا به كثيراً. كان لغسّان حسّ نكتةٍ قويّ، وكان مستقيماً، ولم يكن له أعداء شخصيّون.

□ علاقته بأطفاله؟

ـ علاقة ممتازة. وينطبق القول على علاقته بأطفال الجيران وأطفال أصدقائه. وكان يأخذ أطفاله وأطفال الجيران إلى سينما الحمراء أيّام الأحد بعد الظهر ليشاهدوا الصور المتحرّكة.

[كانت ظلال الأسى قد بدأت تلوح على وجه آني الطيِّب]

□ هل كانت لغسّان نظرة رجعيّة إلى المرأة، وإلى المرأة الغربيّة، أسوةً بالكثير من مثقّفينا بمن فيهم أولئك الذين يُسافرون إلى الغرب ويقيمون علاقات ما مع النساء الغربيّات؟ وما درجة تقدميّة غسّان كنفاني حين يتعلّق الأمر بالقضايا الشخصيّة الاجتماعيّة اليوميّة؟

ـ كان يشجّع النساء في الجبهة الشعبيّة، كليلى خالد، على مواصلة النضال والقتال. وكانت كتبه ـ **كأرض البرتقال الحزين** ومن **قتل ليلى الحايك** ـ مليئة بالنساء ذوات الشخصيّات القويّة والإرادة الصلبة.

وذات يوم، سألته بعضُ المراسلات السويديّات في لقاء في الجامعة الأميركيّة في بيروت عن موقفه من الرجل العربي الذي يتزوّج أربع نساء وما ملكت أيمانه. وتحدّثن عن قمع المرأة في البلاد العربية. فأجاب غسان: «هنا يتزوّج الرجال نساء كثيرات بطريقة شرعيّة. وأمّا في الغرب، فللكثير من الرجال عدّة نساء من غير أن يتزوّجهنّ. فما الفرق؟»

هذا لا يعني أنّ غسّان كان يؤيّد تعدّد الزوجات. على العكس تماماً. غير أنّه كان يؤمن أن لا تحرّر حقيقيّاً للمرأة من غير تحرّرها الاقتصادي. وكان يعتقد أنّ تحرّر المرأة يتمّ جنباً إلى جنب مع تحرّر الرجل والمجتمع، أيْ في سياق التحرّر المجتمعيّ العام. وكان بالطبع يطرح الكثير من الأسئلة بصدد الحركة النسائيّة في الغرب؛ بل إنّ النساء في الغرب ـ على نحو ما تبيّن الجريدة الدانمركيّة التي تجدها أمامك على الطاولة ـ يطرحن اليوم مثل هذه الأسئلة بصدد حركتهنّ عام ١٩٦٨.

وكان يقول لي: «لك حريّتك شرطَ ألّا تؤذي مشاعري، ولي

حـريّتي شرط ألاّ أؤذي مشاعـرك». الحريّـة مسؤوليّة، وهـذا موقفي أيضاً.

هـل كان غسّـان تقدميّاً تجاه ابنتـه؟ للأسف لم يُتح لـه الـوقت ليمتحن نفسه؛ فقد داهمه الموت و«ليلى» بعد صغيرة!

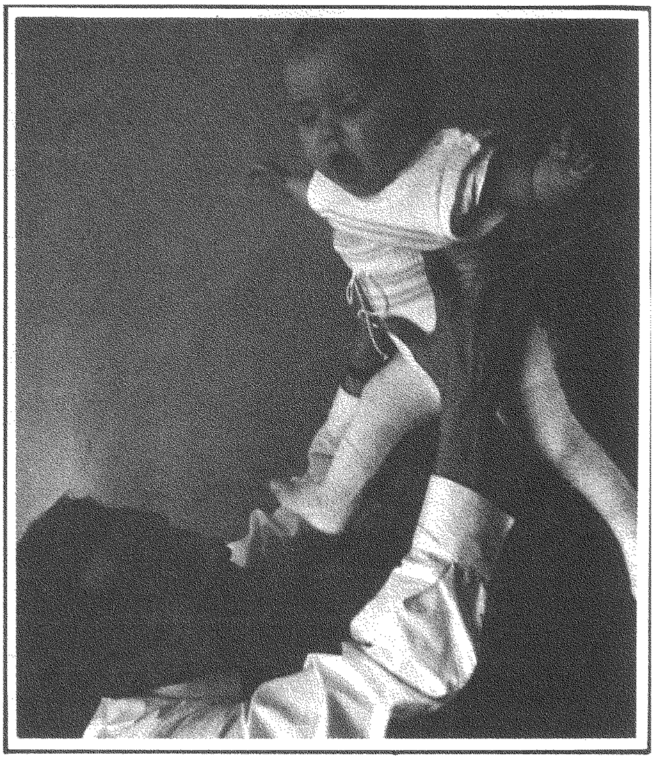

غسّان وابنته ليلى (أيار ١٩٦٧)

☐ آني، ماذا عن ولديْك؟ كيف يريان غسّان كنفاني اليوم؟ وما درجة تأثيره فيهما؟

ـ كتبتْ لي «ليلى» من الدانمرك رسالة جميلة ـ وبالمناسبة أتنبّأ بأنها سوف تكون قصّاصة جيّدة ـ تقول إنّها لا تنتمي إلى الدانمرك، وإنّما إلى لبنان وفلسطين. وقالت إنّه على رغم المزايا التي توفّرها الـدولة للمواطن في الدانمـرك فإنّ شيئاً لن ينسيها أنّها فلسطينيّة. صحيح أنّ لغتها العربيّة ـ كما لاحظ أحد الأساتذة ـ ليست بجودة لغة أبيها الكـاتب؛ ومردّ هـذا، ولا شكّ، إلى حـال الاقتلاع القـومي الـذي خضعتْ لـه (من بيروت إلى الـدانمرك. . .). لكن «ليـلى» وأخـاهـا «فايز» شديدا التأثر بغسّان وبأفكاره مع أنّه مات حين كانـا صغيريْن جدّاً.

أمّا «فايز» فلغته العربيّة جيّدة جدّاً. وقد ترجم كتـاباً لغسّـان إلى الـدانمركيّـة. والاثنان يعبّران عن أفكارهمـا عبر وسـائل أخـرى غير الكتابة. «ليلى» رسّامة جيّدة، وقد رسمت أثناء حرب الخليج لـوحة كبـيرة تصوّر مشـاعرهـا عندمـا انهار ملجأ العـامريّـة في بغداد فـوق رؤوس اللاجئين بفعل القصف الأمريكي. و«فايز» يتعاطى الإخراج السينمائي، ويطمح في أن يُخرج في المستقبـل القريب فيلماً مستمـدّاً من إحدى قصص غسان.

☐ ابنـة تـرسم، وابنٌ يصـوّر، وزوجـةٌ تـديـر مؤسَّسـة تعليميّـة للاجئين. غسّان لم يمت إذن!

ـ لا تنسَ أنّه يحيا أيضاً من خلال كتبه هو بالذات. تلقّيتُ رسالة من امـرأة دانمركيّـة لا أعـرفهـا عـلى الإطـلاق. ذهبتْ إلى معـرض للكتب في فلسطين وراحت تقلّب كتاباً لغسّان. وإذا بفتاة فلسطينيّة في حـوالي العشرين من عمرهـا تقف إلى جانبهـا، وتشير إلى صـورة غسّـان، وتقول: «اسمعي! هذا بطلنا!»

[آني تغص إذْ تنـطق بكلمـة «Our hero». وتصمت. ثم تنـظّف حنجرتها، قبل أن تضيف]:

في فلســطين المحتلّة، تُقـرأ كتبـه. ليس المهمّ أن يعيش المـرء طويلاً، وإنّما المهمّ ما يفعله أثنـاء حياته. إنّ ما فعله غسّـان خلال أعـوامه الستة والثلاثـين عظيم الأثـر. وكان يعلَم أنّـه لن يعود إلى فلسطين أثناء حياته، لكنّه كان واثقـاً أنّ أولاده سوف يعـودون(؟). وكان يدرك أنّ الصراع طـويل وأنّـه بحاجـة إلى الكثير من الـدماء؛ ذلـك مـا قـالـه عقب مجـازر أيلول الأسـود تحديـداً. وحـين سـألـه أحـدهم: «الجبهـة الشعبيّـة تقـول إنّ الأعـداء هم اسرائيـل، والصهيونيّة العالميّة، والامـبرياليّـة الأمريكيّـة، والرجعيّـون العرب. فكيف ستقـاتلون وتنتصرون؟»، أجاب غسّـان: «لم نختر أعـداءنا. ولكن حين يقاتلوننا نقاتلهم!».

* * *

مع أبيه وأمّه، وأخته سهى، وابنه فايز